حول مقال

نصير الدين الطوسي

العالم الرياضي

رأي وتعليق

للدكتور : سامي الصقار

نشرت « الدارة » بعددها الاول (السنة الرابعة) الصادر في ربيع الثاني ١٣٩٨ ﻫ الموافق لشهر آذار (مارس) ١٩٧٨ م ، مقالا قيما بعنوان (نصير الدين الطوسي ـ العالم الرياضي الملقب بالعلامة) ، بقلم سعادة الدكتور علي عبد الله الدفاع ، عميد كلية العلوم في جامعة البترول (النفط) والمعادن بالظهران ، استغرق عشر صفحات ، (ص ١٧٤ ـ ١٨٣) ، وقد جاء في مقدمة هذا المقال (ص ١٧٤) بان الطوسي عاش وتوفي في بغداد أيام آخر خلفاء بني العباس المستعصم ، وذلك فيما بين سنتي ٥٩٧ ـ ٦٧٢ ﻫ (١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) وانه كان عالما فذا في الرياضيات والفلك ، أسند اليه المستعصم عام ٦٥٧ ﻫ (١٢٥٩ م) المرصد الفلكي في مراغة الذي اشتهد بآلاته الفلكيةالدقيقة الخ ٠٠ ثم قال الكاتب الفاضل (ص ١٨٣) بان نصير الدين الطوسي نظم قصيدة في مدح الخليفة العباسي المستعصم ، فغضب أحد وزرائه ، فطلب الى حاكم قهستان الترصد له ، وبالفعل القي عليه القبض ، وسجن في قلعة (الموت) ، وبقي فيها مدة طويلة الف خلالها مصنفاته العلمية ٠

ان من يقرأ مقدمة هذا المقال وخاتمته يخرج بانطباعات بعيدة كل البعد عن حقائق التاريخ ، بل أن بعضها يتنافى وأبسط الحقائق التاريخية ، من ذلك مثلا أن المقال أبقى الخليفة المستعصم حيا الى سنة ٦٥٧ هـ على الاقل ، وجعله يسند ادارة المرصد الفلكي في مراغة الى صاحبنا الطوسي ٠٠ وذلك خلافا للحقيقة التاريخية الصارخة المعروفة ألا وهي أن المستعصم قتل على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ، وهي سنة وقوع الكارثة الكبرى بسقوط بغداد على يد المغول ٠ وانني اذا كنت أجد العذر لسعادة الدكتور الدفاع في الوقوع بمثل هذا الخطأ التاريخي لانه بعيد في اختصاصه عن مادة التاريخ وأن الغرض من مقاله هو ابراز الانجازات العلمية لنصير الدين الطوسي ، وقد أحسن في ذلك وأجاد ، ولكنني لأدري كيف فات ذلك على هيئة تحرير (الدارة) التي يفترض فيها أن تدقق المقالات قبل نشرها وتتدارك ما قد يقع فيه الكتاب من أخطاء فتنتبه اليها على الاقل ٠

وقياما بواجب العلم ، ووضعا للحقائق في نصابها ، وازالة للغموض الذي اكتنف الجانب التاريخي من المقال ، سأبدي هنا بعض الملاحظات خدمة للحق والتاريخ :

١ ـ ان المقال قبل كل شيء جاء خاليا من أية حاشية أو ذكر للمراجع التي استند اليها الكاتب الفاضل ، وهذا بطبيعة الحال لايتفق وأساليب البحث العلمي الصحيح ، فعسى أن يتدارك ذلك فيما سيكتبه من مقالات في المستقبل ان شاء الله ٠

٢ ـ ان نصير الدين الطوسي ـ وهو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن ـ كان من الفلاسفة البارزين ، ومن المشتغلين بالعلوم العقلية والرياضية وبالارصاد الفلكية ، وقد صنف في هذه العلوم كتبا كثيرة (١) طبع بعضها ، ولايزال البعض الآخر مخطوطا ، والذي يهمنا هنا هو أن من يقرأ مقال الدكتور الدفاع يخرج بانطباع وكأن الطوسي قد قضى حياته أو معظمها على الاقل في بغداد التي توفي بها ، وأن حياته ووفاته كانت في أيام آخر خلفاء بني العباس (المستعصم) ، أي أن كل ذلك قد تم في أيام المستعصم بين سنتي ٥٩٧ هـ و ٦٧٢ هـ وهذا مخالف للواقع ، ذلك لأن الطوسي ولد بطوس في سنة ٥٩٧ هـ /١٢٠١ م ، وقضى شطرا طويلا من حياته في خراسان ، وأنه كان بمدينة نيسابور عندما اجتاحها جنكيز خان ، ففر أمام جحافل المغول ، ولم يجد ملجأ غير قلاع

الاسماعيلية التي كانت تقاوم الزحف المغولي ، فسافر الى قهستان واحتمى بمتوليها ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور بدعوة منه ونزل ضيفا عليه ، ثم استدعاه زعيم الاسماعيلية ليقيم معه ، وبقي في قلعة (ألموت) حتى سقطت بيد هولاكو سنة ٦٥٣ هـ (أو ٦٥٤) ، وعندها انضم الطوسي الى هولاكو (٢) .

من هذا يتضح أن الطوسي ـ رغم تتلمذه على يد العالم العراقي الكبير كمال الدين يونس بن منعة الموصلي ، الذي كان يقيم في الموصل ـ فان أحدا من مترجميه لم يذكر لنا أنه عاش في بغداد أيام الخليفة المستعصم ، بل أنه رافق هولاكو في هجومه على بغداد ، الامر الذي حمل بعض المؤرخين على اتهامه بأنه هو الذي أشار على هولاكو بقتل الخليفة ورجال دولته ، وذلك في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . وهذا معناه أن وفاة الطوسي التي وقعت سنة ٥٧٢ هـ / ١٢٧٤ م ، لم تكن في أيام المستعصم ، نعم لقد توفي الطوسي ببغداد فعلا ، ودفن في مشهد الامام موسى الكاظم (رض) بالقرب من بغداد (٣) ، الا أن وفاته وقعت بعد مقتل الخليفة المستعصم بست عشرة سنة .

٣ ـ والانطباع الآخر الذي يخرج به قارىء مقال الدكتور الدفاع ، هو أن المستعصم قد أسند الى نصير الدين الطوسي عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩ م ادارة المرصد الفلكي في مراغة ، ولا حاجة بنا الى تكرار ماسبق وبيناه أعلاه من أن المستعصم قد استشهد في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وعليه فليس من الممكن أن يكون هو الذي أسند الى الطوسي أعمال المرصد ، ثم أن هناك حقيقة أخرى ، هي أن مرصد مراغة لم تكن له أية علاقة بالخليفة المستعصم ، لا من قريب ولا من بعيد ، وانما الذي بناه هو هولاكو ، ذلك أن الطوسي علت منزلته لدى هولاكو ، فكان يطيعه فيما يشير به عليه ، بل صار له وزيرا وناظرا على الاوقاف (٤) ، وقد ذكر الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) بأن الطوسي لما أراد انشاء المرصد (وكانوا يسمونه الرصد) رأى هولاكو جسامة ماينصرف عليه ، فاستفسر من الطوسي عن فوائد علم النجوم ، فشرح له تلك الفوائد بشكل يلائم عقلية هولاكو ، فوافق على (الشروع فيه) (٥) ، ثم يقول أنه أخذ من هولاكو بسبب عمارته (مالا يحصيه الا الله) ، وجمع لبنائه عددا كبيرا من الحكماء ، منهم المؤيد العرضي من دمشق ، والفخر المراغي من الموصل ، والفخر الخلاطي من تفليس والنجم القزويني وغيرهم كثير (٦) ، وكان من بين الذين حشدهم الطوسي لمرصده ،

المؤرخ المعروف ابن الفوطي البغدادي الذي كان عند دخول المغول الى بغداد خازنا لمكتبة المدرسة المستنصرية ببغداد ، فعينه خازنا لمكتبة المرصد التي جمع فيها حوالي ٤٠٠ ألف مجلد من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة أثناء الغزو المغولي ۰ وقد جعل لهؤلاء العاملين في المرصد أوقافا تقوم بمعاشهم ، وكان هولاكو يمده بالاموال (٧) ، وتقول في ذلك (الموسوعة الاسلامية) بأن هولاكو قد أوكل اليه أمر اقامة المرصد في مراغة وتجهيزه بخير الآلات التي استحدثت استحداثا ، وبعدد كبير من الراصدين (٨)

وواضح مما تقدم بأن الذي أنشأ المرصد هو الطوسي بموافقة من هولاكو وبالاموال التي حصل عليها منه ، ولا علاقة للخليفة المستعصم بذلك ، بل يمكن القول بأن انشاء مرصد مراغة ما كان ممكنا لولا الخراب الذي حل ببغداد وبحواضر العراق والشام ، وتشرد علمائها ، الامر الذي ساعد الطوسي على جمعهم وحشدهم في مراغة ، كما صار بوسعه جمع المنهوبات من الكتب ، وهذا كله وقع نتيجة للغزو المغولي وسقوط بغداد ۰

٤ _ نقطة أخرى يخرج بها قارىء مقال الدكتور الدفاع ، هي أن سبب اقامة الطوسي في قلعة (ألموت) هو نظمه قصيدة في مدح الخليفة العباسي مما أغضب وزيره الذي طلب الى حاكم قهستان القبض على الطوسي وسجنه ، الا أن الواقع يخالف ذلك ، فقد سبق ورأينا بأن الطوسي فر من أمام جحافل جنكيز خان ، ولم يجد ملجأ غير قلاع الاسماعيلية التي كانت تقاوم المغول ، وأنه احتمى بحاكم قهستان ناصر الدين (٩) ، بدعوة منه ونزل ضيفا عليه ، ثم استدعاه زعيم الاسماعيلية ليقيم معه فوافق وبقي في قلعة (ألموت) حتى سقطت بيد هولاكو ، فانضم اليه (١٠)

وهناك من يقول بأن الطوسي أقام بين الاسماعيلية مكرها ، وأنه حاول الخروج من تحت سيطرتهم ، ولم يوفق ، وقد نظم قصيدة أثناء وجوده في كنفهم ، يمدح بها الخليفة المستعصم وأرسلها بواسطة وزيره العلقمي ، محاولا مساعدته لدخول بغداد ، ولكن العلقمي رأى في ذلك ماينافي مصلحته الخاصة، وخاف تأثيره (أي تأثير الطوسي) على الخليفة لفضله وعلمه ، فتسقط

منزلته (أي منزلة العلقمي) عنده ، فأرسل سرا بخبر الرسالة الى زعيم الاسماعيلية مما جعل هذا الاخير يشدد الحراسة عليه ، فبقى في قلعة (ألموت) حتى سقوطها (١١)

وهكذا فان اقامة الطوسي بين الاسماعيلية ، لم يكن سببها نظمه للقصيدة ، وانما قد تم نظم القصيدة أثناء وجوده بين ظهرانيهم ، هذا اذا لم نأخذ بالخبر الاول الذي يؤكد بأنه أقام في قلاعهم مختارا ، والجدير بالذكر أن ابن كثير (١٢) ذكر بأنه تولى الوزارة لاصحاب قلاع الموت أما الموسوعة الاسلامية (١٣) ، فانها تقول أنه بدأ فلكيا للوالي الاسماعيلي نصير الدين عبد الرحمن (كذا) ، وانه لما انفضح أمره في طلب الانتقال الى بلاط الخليفة وضع تحت الرقابة مع استمراره في وظيفته ، ثم أنه نجح سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م في أن يوقع رئيس الحشاشين في يد هولاكو الذي صحبه الى بغداد ، وأصبح وزيرا له وناظرا للاوقاف ، وهذه الروايات على كل حال لاتشير من قريب أو من بعيد الى ماذكره كاتب المقال من أن وزير الخليفة طلب الى حاكم قهستان الترصد للطوسي ، وأنه ألقي عليه القبض وسجن في قلعة (ألموت) !

وقبل ختام هذه الملاحظات أود أن أشير الى نقطة مهمة لاعلاقة لها بالمقال ولكن لها علاقة بنصير الدين الطوسي نفسه ، هي اتهامه بالتحريض على قتل الخليفة المستعصم ورجال دولته والعلماء ، فضلا عن اتهامه بالالحاد ولكن ابن كثير (١٤) وان أشار الى تلك التهمة ، الا أنه لم يقطع بصحتها ، واكتفى بالقول (فالله أعلم) ، ثم قال : (وعندي أن هذا لايصدر من عاقل ولا فاضل) ، أما الصفدي فقد ذكر في (الوافي بالوفيات) (١٥) عند حديثه عنه بأنه كان للمسلمين به نفع وخصوصا الشيعة والعلويين والحكماء ، وكان يبرهم ويقضي أشغالهم ويحمي أوقافهم .

هذه ملاحظات سريعة أقدمها خدمة خالصة للحق والتاريخ ، وقضاء للواجب الملقى على عاتقي بصفتي من طلبة التاريخ ، وأرجو أن اكون قد وفقت في أداء تلك الخدمة والله من وراء القصد .

الحواشي والتعليقات :

(١) من كتبه المشهورة التي طبعت : شكل القطاع ، تربيع الدائرة ، تحرير أصول اقليدس تجريد العائد وهو في علم الكلام ، و ـ حل مشكلات الاشارات والتنبيهات لابن سينا ـ وهو في الفلسفة ، وغير ذلك كثير مما ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ، انظر ايضا (الاعلام) للزركلي ـ ج ٢٥٧/٧ و (معجم المؤلفين) لكحالة ـ ج ٢٠٧/١١ ، و (الذريعة) لاغابزرك الطهراني ـ ج ٢٦/١ و ج ٥٠/٤ و (معجم المطبوعات) لسركيس ص ١٢٥٠ و (هدية العارفين) لاسماعيل باشا البغدادي ـ ج ٢ / ١٣١ ، و (التعريف بالمؤرخين العراقيين) لعباس العزاوي ج ١ / ٨٨ ـ ٩٠ ولاجل‌الاستزادة عن حياة الطوسي ، تراجع الكتب الاتية علاوة على المراجع سالفة الذكر : (فوات الوفيات) للكتبي ـ ج ١٤٩/٢ و (الوافي بالوفيات) للصفدي ـ ج١/١٧٩ و (شذرات الذهب) لابن العماد ـ ج٣٣٩/٥ و (البداية والنهاية) لابن كثير ـ ج ٢٦٧/١٣ ، و (السلوك) للمقريزي ـ ج ٦١٤/١ و (فلاسفة الشيعة) للشيخ عبد الله نعمة ص ٤٧٢ ـ ٥٠٣ و (روضات الجنات) للغوانساري ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ و (الموسوعة الاسلامية) (الترجمة العربية) ج ١٥ ـ مادة (الطوسى)

(٢) انظر (فلاسفة الشيعة) للشيخ عبد الله نعمة ص ٤٧٧

(٣) انظر (الاعلام) للزركلي ـ ج ٢٥٧/٧

(٤) انظر (الاعلام) للزركلي ـ ج ٢٥٧/٧ و (الوافي بالوفيات) للصفدي ج ١٨٢/١ .

(٥) انظر (الوافي بالوفيات) للصفدي ـ ج ١ / ١٧٩

(٦) المصدر السابق ج ١٨٢/١ ، ويقول ، كان الابتداء في بناء المرصد في جمادى الاولى من سنة ٦٥٧ هـ

(٧) انظر (الاعلام) للزركلي ـ ج ٢٥٧/٧ و (فلاسفة الشيعة) للشيخ نعمة ص ٤٨٣

(٨) انظر (الموسوعة الاسلامية) ـ الترجمة العربية ج ٣٨١/١٥

(٩) توهم مترجم ـ الموسوعة الاسلامية ـ فسماه (نصير الدين عبد الرمن) ـ ج١٥/٢٨٧

(١٠) انظر (فلاسفة الشيعة) للشيخ نعمة ـ ص ٤٧٧

(١١) انظر (روضات الجنات) للخوانساري ـ ص ٦٠٩ و ٦١٠ و ـ فلاسفة الشيعة ـ للشيخ نعمة ص ٤٧٧

(١٢) انظر (البداية والنهاية) لابن كثير ـ ج ٢٦٧/١٣

(١٣) راجع الترجمة العربية ـ ج ٢٨٧/١٥

(١٤) انظر (البداية والنهاية) لابن كثير ـ ج ٢٦٧/١٣ و ـ شذرات الذهب ـ لابن العماد ج ٢٤٠/٥ و ـ الاعلام ـ للزركلي ـ ج ٢٥٨/٧ ، وقد نقل الاستاذ الزركلي خبر التهمة عن كتاب (اغاثة اللهفان) لابن قيم الجوزية ٠

(١٥) انظر (الوافي بالوفيات) للصفدي ـ ج ١٨٢/١